

محمد شوقي الزين | Mohammed Chaouki Zine*

الفضاء العمومي المغربي في فرنسا اليوم رؤية مفكر فرنسي: ميشال دو سارتو**

Maghrebian Public Space in France Today: A French Thinker's Vision: Michel de Certeau

ترجمة محمد أمين بن جيلالي | Mohammed Amine Bendjilali***

ملخص: يتوجّه فكر ميشال دو سارتو نحو بناء تصور للفضاء العمومي وفقاً لثنائية الإستراتيجية والتكتيكية. تعمل هذه الثنائية بوصفها طريقة داخل الممارسات اليومية للفاعلين في «نظم السلوك الاجتماعي». في عرض وجه التضاد بين عالمين مختلفين في البيئة السوسولوجية، يحاول دو سارتو أن ينجز مقارنة مقارنة للفضاء العمومي المغربي بوصفه "تكتيكية" ونظيره الفضاء العمومي الفرنسي الذي يعرفه بأنه إستراتيجية؛ الإستراتيجية نسق يرصد الممارسات والتمثلات، والتكتيكية فعل مقاومة لهذا النسق، ترتاده كـ «قبالة» في «مكان خاص».

الكلمات المفتاحية: إستراتيجية، تكتيكية، فضاء عمومي، ميشال دو سارتو.

Abstract: Michel de Certeau's thinking is geared towards constructing a vision of public space in accordance with the dichotomy of the strategic and the tactical. This dualism acts as a method within the daily practices of actors in «systems of social behavior.» In displaying the contradictory features of two different worlds in the sociological environment, De Certeau tries to achieve a comparative approach to Maghrebian public space that he regards as a tactic and its counterpart French public space that he defines as a strategy - strategy understood as a system that detects practices and representations, and tactic as an act of resistance to this system, played out as «opposition» in a «private place».

Keywords: Strategy, Tactic, Public Space, Michel de Certeau.

* أستاذ محاضر مؤهل في الفلسفة في جامعة تلمسان، الجزائر.

Professor of Philosophy at Tlemcen University, Algeria.

** نصّ المقالة الأصلية: دراسة نُشرت بالفرنسية في كتاب جماعي هو تويج لملتقى دولي عنوانه «الفضاءات العمومية في البلدان المغربية» (أيام 15-16-17 آذار/ مارس 2011)، بإشراف مركز البحث في الأثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، (وهران، الجزائر) ومخبر دراسات مغربية (جامعة تونس)، والدراسة بالفرنسية، انظر: Mohammed Chaouki Zine, «L'espace public maghrébin en France d'aujourd'hui. Le regard d'un intellectuel français: Michel de Certeau,» in: *Les espaces publics au Maghreb*, sous la direction de Hassan Remaoun & Abdelhamid Henia (Oran: CRASC & Diraset, 2013), pp. 79-91.

*** باحث دكتوراه في الدراسات السياسية المقارنة في جامعة وهران 2، الجزائر.

Doctoral researcher in comparative political studies at the University of Oran 2, Algeria.

تمهيد

ميشال دو سارتو⁽¹⁾ عالم أنثروبولوجيا، ومؤرخ ومفكر فرنسي (1925-1986) تطوّر في اتجاه متعدّد الأشكال تقريباً: ضمن منجزاته العلمية، مدينون له بعمل موسوعي حول المتصوّفة اليسوعيين الأمر الذي أفضى به إلى تأليف الحكاية العرفانية ونشرها *La fable mystique* عام 1982؛ والعمل الإبستيمولوجي حول النشاط الإسطوغرافي مع كتابة التاريخ *L'écriture de l'histoire*؛ وأخيراً العمل الأنثروبولوجي حول الممارسات اليومية مع ابتكار الحياة اليومية *L'invention du quotidien*. من النظرة الأولى، يبدو أنّ هذا التطوّر يسلك مساراً متردداً، وممزقاً بين الولاء للالتزام (الرجل والعمل المكرّس للانتماء إلى اليسوعية)، والوفاء الصارم والدقيق لمهنته (الحقل التاريخي) والاستجابات الدائمة للكائن الحاضر (الانخراط في الحداثة). ولكن عند إمعان النظر، يُبنى عمله، بالأحرى، على افتراض الوحدة الضمنية *L'unité Intrinsèque*؛ أي الاستمرارية من وراء القطيعة (يتحدّث من خلالها عن «الوحدة في الاختلاف»)، والقطيعة خلف الاستمراريات (التي يؤكّد ضمنها «القطيعة التأسيسية»)، فالديمومة لا تعني استدامة القديم، ولكن «غيرية المثل».

في العصر الذي شهد تلاشي البراديغم البنيوي *Paradigme Structuraliste* في فرنسا، كان دو سارتو على اتصال بالتيارات السوسولوجية والفلسفية الأميركية، إضافةً إلى تشتّت تطلعاته المتنوعة والواعدة على غرار الإثنوميتودولوجيا *L' Ethnométhodologie* والتفاعلية الرمزية والألسنيات الاجتماعية والتداوليات، وأمور أخرى. لقد استفاد من هذه الأدوات التحليلية ليضفي نفساً جديداً على الدراسات الاجتماعية في فرنسا. اشتغل دو سارتو أستاذاً في جامعة سان دييغو (كاليفورنيا) قبل أن يكون، في عام 1984، خلال عامين فقط قبل وفاته، مديراً للدراسات في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية EHESS في باريس. يتحدّث العنوان المذكور عند فرانسوا دوس *François Dosse* السائر الجريح *Un Marcheur Blessé* كثيراً عن مسار دو سارتو ومهنته.

ويستحضر بول رابينوف *Paul Rabinow* أيضاً حلقة من النفي الكاليفورني لكاتبنا⁽²⁾، تذكّر بمتاعب الهجرة *Les Vicissitudes De L'immigration* التي تشغل حيزاً من تفكيرنا. يتعلّق الأمر بالتوفيق بين «دالين» لهما مدلولان مختلفان أو التوضع على حافة عالمين، وهذا في ذاته محنة، أو ما أطلقت عليه فلسفة التاريخ الألمانية *Weltanschauungen* (رؤى العالم).

الفضاء العمومي بين الإستراتيجية والتكتيكية:

مقتطف من تعريف

تُعَدّ مفاهيم «الإستراتيجية» *Stratégie* و«التكتيكية» *tactique* أساس فكر ميشال دو سارتو. تحليل الإستراتيجية إلى فكرة وجود نسق أكثر تماسكاً أو أقل ومتناظم النسق *Architectonique* تخضع له

(1) للسيرة المُفضّلة، أُحيل إلى المرجع المكتف والموثق بشكل كافٍ:

- François Dosse : *Michel de Certeau, le marcheur blessé*, (Paris: La Découverte, 2002).

(2) Paul Rabinow, «Un prince de l'exil,» in: Luce Giard (éd.), Michel de Certeau, *Cahiers pour un temps* (Paris: Centre Georges Pompidou, 1987), pp. 39-43.

جملة الممارسات والتمثلات. أمام هذا النسق، تقوم التكتيكية كـ «قُبالة» تقاومه في صيغة «موضوع»، وتتردد على المكان الخاص والمحصور لهذا النسق: «إذا كانت الإستراتيجية في المقام الأوّل مفهوماً مستعاراً من علم الحرب، أيضاً هو من المفاهيم الأساسية لعلم الفعل»⁽³⁾. يتبنّى دو سارتو هذا التعريف، بنقله من علم الحرب إلى الممارسات الاجتماعية بما أنّه يتصور المجتمع بوصفه حقلاً للصراع. يكتب عن ذلك في ردّه على رسالة إلى لويس كيري:

«ينبغي لنا أن نعيد الاعتبار للمظهر 'الصراعي' Polémologique في كل تحليل ثقافي. عندما نعرض مسألة الممارسة، بمعنى العمليات، فإننا نسلط الضوء على مشكل الصراع. هذا ما تبيّنه مثلاً الإبستمولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع ماركس وفرويد. لا يمكن إجراء أيّ تحليل (علمي أو نقدي) بغض النظر عن الصراع. فالصراع هو أمر أساسي مثل الأبعاد الاقتصادية والأخلاقية والجمالية للممارسات اليومية»⁽⁴⁾.

يتجاوز الصراع هنا الإطار التنظيمي الوحيد لعلم الحرب. تعرض دراسات الحرب ملامح علم الصراع بصورة عامة. ويبدو أنّ أفكار ميشال دو سارتو حول الصراع تتوافق مع ما نجده في الفكر القديم، خصوصاً مع هيرقليطس الذي يرى أنّ الصراع «أب كلّ الأشياء» Polemos Pantôn Mèn Pater الصراع هو الخالق لنظام جديد عن طريق دمج الأضداد أو الانسجام بين التناقضات. فالتناقض المولّد للصراع موجود في قلب التطور:

«أسمّي إستراتيجية حساب العلاقات في القوة الذي يصبح ممكناً عندما تُعزل 'ذات لها إرادة' عن بيئتها (مهما كان شكل هذه الذات: شركة، أو حاضرة، أو مؤسسة علمية). نحصل إذًا على محل خاص تتصل من خلاله القوى المحسوبة بالخارج: يتعلّق الأمر بالموديل المكيفلي Le Modèle Machiavélique الذي يميز المكان عن الفعل. بناءً على هذا النمط الإستراتيجي شُيدت العقلانية الرسمية، والسياسية، والعلمية والاقتصادية»⁽⁵⁾.

يتوافر عدد من العناصر يتعلّق بالإستراتيجية يعود إلى:

- أولاً، هناك «حوسبة علاقات القوة» وفقاً لسبب تصنيفي (الجداول، والشبكات، والتصنيفات) يعزل «موضوع الإرادة والسلطة». يأخذ هذا الموضوع المتعلق بالإرادة والسلطة صيغة أكثر شمولاً، المؤسسية أو التوافقية، نظراً إلى أنّها شراكة، أيّاً كانت طبيعتها: جيش، أو مدينة، أو إدارة أو مؤسسة علمية. على الفور، ينضوي دو سارتو ضمن أفق نظرية الخيار العقلاني La Théorie Du Choix Rationnel لأنّ الإستراتيجية، بطبيعة الحال، «اختيار بين الممكنات»، هي أفضل وسيلة لتحقيق الغاية النهائية من

(3) R. Daval, «Stratégie» [soc.], *Notions philosophiques*, Dictionnaire encyclopédique de philosophie, p. 2463.

(4) Louis Quéré, «Les sciences sociales face à la rationalité des pratiques quotidiennes. Questions à Michel de Certeau,» in *Problèmes d'épistémologies en sciences sociales, II-Sociologie, pratique et politique* (Paris: Cems Ehess, CNRS, 1983), p. 86.

(5) Michel de Certeau, «Pratiques quotidiennes,» in: G. Poujol et R. Labourie (éd.), *Les cultures populaires* (Toulouse: Privat, 1979), p. 29; M. de Certeau, *L'Invention du quotidien*, I (Paris: Gallimard/Folio, 1990), p. XLVI, 59.

خلال المداولة. يستعمل الفاعل العقلاني وسائل الخيار والمشاورة من أجل تحقيق أقصى قدر من الربح، في الحين الذي يعي وجود مخاطر واحتراسات يمكن أن تحبط اختياره. يعود ذلك إذاً إلى براعة الممارسة أو التعقل. الخطر شيء محتمل ينبغي للفاعل أخذه في الحسبان، بحكم أنه يتوقف على مختلف حوادث العالم.

- ثانيًا، هناك «مكان خاص» يحافظ على العوامل الخارجية بعيداً عن العزل والتصنيف (الجيش ضد العدو، والمدينة مقابل الريف، والمؤسسة العلمية في مواجهة الموضوع المعالج). هذا معنى «الهوية» *Identité* في تطويقها «الأخر» *Altérité*. ويُعرف هذا المكان الخاص بأنه «مكان الفعل» *Lieu De L'action*، حيث تتركز الأفعال الفردية أو الجماعية في منح أو مواجهة مؤسسة المعرفة أو السلطة. والغرض من ذلك، هو طريقة أداء وظائفها. هكذا يحدث للعقلانية السياسية، والعلمية والاقتصادية، مع منافسة الأفعال. تحدّث دو سارتو عن المكان الخاص بوصفه مكاناً للتداول والقرار. فالعقلانية تسمح للفاعل بأن يختار، مع مراعاة إدراكه الوضع مع محدوديته إزاء الاحتمالات الذي يكشف الاستخدام الأمثل للموارد، والقدرة المثلى لاستثمار المعطيات البيئية.

- وأخيراً، هناك أولوية المكان بالنسبة إلى الزمن. فالعديد من العوامل هي لمصلحة المكان بوصفه موقعاً إستراتيجياً: أ) رسملة *La Capitalisation* القوى للمزيد من التوسّعات والمكاسب؛ ب) الممارسة البانوبسية *La Pratique Panoptique*، «أرى ولا أحد يراني»، ميزة هذه الملاحظة، القياس والتحكّم في الموضوع. هذه الممارسة هي «رؤية» *Vision* (تنظير) و«توقع» *Prévision* (استشراف)، بمعنى أنّ الأفعال تطور أمكنة نظرية (المعرفة) وتضمن التفوق والهيمنة (سلطة).

«أسمي بالمقابل تكتيكية حساب القوى التي تفتقر إلى محلّ خاص وإلى حد يميّز الآخر بوصفه كلية مرئية أو جليّة. فليس للتكتيكية من مكان سوى مكان الآخر. فهي تؤدّي أدوارها داخل نص الآخر أو نسقه. فهي تتسلّل فيه تسلاً متشظياً دون أن تقبض عليه تماماً، بمعنى دون أن تستبعده. فليس لها قواعد يمكن من خلالها أن تمولّ فوائدها. فهي تنحصر في اللحظة، بينما الإستراتيجية هي دوماً انتصار المكان (المكان الخاص) على الزمان. عند غياب المكان الخاص، وانعدام إمكانية تخزين المواد، والمعلومات، تغدو التكتيكية حذراً في جميع اللحظات، فورية في تسريب الفهم لاحتمال وقوع انقلاب: كالرجل الذي يسير في الشارع، ربّة البيت التي تعدّل برنامجها وفقاً للبضائع الجديدة في السوق اليومية»⁽⁶⁾.

من خلال هذا التعريف نستخلص العناصر التأسيسية لنموذج التكتيكية:

- عدم وجود المكان الخاص: وفقاً لقانون الآخر، بحيث تلعب التكتيكية في ميدان ما يفرضه هذا القانون. يقول دو سارتو أيضاً: إمكانية أن يستفيد «الضعيف» *Faible* من «القوي» *Fort*، فجأةً، وفي ظرف قياسي، هناك فرصة لقلب الوضع لمصلحته. تقدّم التكتيكية كـ «دخيل» *Intrus* يشغل ميداناً ليس ملكه.

- غياب الشمولية البانوبسية: فالتكتيكية لا تقدّم نظرة شاملة، لأنها ضرورية لتنظيم «المرئي» وجعله «مقروءاً».

(6) De Certeau, *L'invention du quotidien*, p 60.

فهي حركة باطنية وصامتة، في تعارض مع العلو من زاوية تلك النظرة التي تحتضن الحجز الكامل. هذا هو السُّلم «المجهري» Microscopique (الميكروسكوبي) الذي تعمل التكتيكية ضمنه، في تشتت دون وحدة، لاستكشاف كل الاتجاهات، فقط مع النظرة الجزئية والدقيقة القريبة من الاتجاه المحلي.

- أولية الفرص: تمثل التكتيكية فضاءً دون قاعدة صلبة، وتفضّل على النمط الهيرقليطي الذي يتألف من لحظات وفرص ثمينة. من وجهة النظر هذه، ترتبط التكتيكية ارتباطاً وثيقاً بالفرصة «غير منفضمة» Indissociablement عن «كايروس» Kairos الثمين في الفكر الإغريقي، في الوقت الملائم. هي في اللحظة وفي أي شيء يستلزم دلالة الصدفة، غير متوقعة، غير دائمة، وعابرة. تُختزل التكتيكية في اللعب. هي صورة للفعل الذي لا يتبع عملية عُرْفية متبعة عند الفعل: الاختيار، والمداولة، والقرار. هذه الصورة من الفعل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل ما يدلّ على أسلوب متقن للفعل.

وبناءً على قاعدة التمييز بين الإستراتيجية والتكتيكية، يُبنى «الفضاء العمومي» L'espace Public بالأسلوب نفسه. لكن إذا تقدّمنا بفكرة أنّ الفضاء العمومي يمثل «التكتيكية»، ماذا يمكن أن نعدّ الإستراتيجية؟ هل هي الدولة؟ أم الإدارة؟ بمعنى آخر كل ما هو مستقر في أساساته القانونية والمؤسسية؟ لنفهم سبب وضعنا الفضاء العمومي في فئة «التكتيكية». يجب أن نعرف أنّ مفهوم «الفضاء العمومي» يدلّ في هذه الحالة على صورة. تُعد الأعمال في هذا المجال متعددة ومتشعبة⁽⁷⁾. وبكيفية بعض المعالم التي تساعدنا على فهم أفضل لهذا المفهوم ووضعه في أفق منظورنا، لنكشف عن الفضاء العمومي المغربي الذي عالجه ميشال دو سارتو.

كان الفضاء العمومي مَوضِعاً، كما اعتزم تحديده هابرماس في «تكتل» Conglomerat من أشخاص⁽⁸⁾ تجمّعوا حول مصالح معيّنة واعتادوا على الاستعمال العام للعقل. ببساطة، القيم الإيتيمولوجية Etymologiques للعقل هي السائدة، لأنّ المصطلح اليوناني لوغوس Logos يدلّ على كلّ من اللغة والعقل، وبوجه آخر أقول التبادل الخطابي (المناقشة، والحوار) والحجّة (استخدام المنطق، والعمليات المنطقية، وغيرها) يحيل هابرماس أيضاً إلى النص التأسيسي لكانط «ما التنوير؟» Was ist Aufklärung الذي كان يُعدّ «البيان» الحقيقي للتنوير؛ الأمر نفسه عند هيغل الذي يوافق تحديده فضاء «البورجوازية» Bourgeois الاتصال لمواجهة السلطة المطلقة للدولة. ومع ذلك، لم يكن هذا التصوّر «الثنائي» Dichotomique على مذاق هابرماس الذي قدّم في مقاله في القانون والديمقراطية Droit et Démocratie⁽⁹⁾ عام 1992، «تصويماً» Rectificatif بإضافة عنصر أكثر اتساعاً استفادت منه الفلسفة الألمانية في القرن التاسع عشر، خصوصاً مع ديلتاي وهو «عالم المعيش» (Lebenswelt).

(7) لمزيد من التفصيل، انظر:

Jürgen Habermas, *L'espace public: archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise*, Marc Buhot de Launay (trad.), (Paris: Payot, 1978).

(8) نفضّل مصطلح «الأشخاص» المعنى المجازي اللاتيني لكلمة persona (قناع بالمعنى المسرحي)، في حين يكون لمصطلح «الأفراد» القدر نفسه من الأهمية، ولكن ليس بالمحتوى المعرفي والرمزي الذي تتضمنه كلمة «شخص».

(9) J. Habermas, «L'espace public: 30 ans après», *Quaderni*, no. 18 (Automne 1992), p 119.

وتهدف هذه الفكرة إلى تعزيز تصوّر أكثر مرونة حيث قيم الفعل التواصلية التي تُمثّل مثلاً معيارياً، وهو نمط من التصرف في المشترك (الوجود - مع Mitsein).

يتميز الفضاء العمومي ببعدين متناقضين، لكن متكاملين: من جهة، البعد «الرمزي» Symbolique الذي يعني التبادل التخاطبي وتقاسم الخبرات، ومن جهة أخرى البعد «المادي» Matérielle الذي يمثّل الموقع الجغرافي (مكان، وأغورا⁽¹⁰⁾، ومقر حزب، واتحاد نقابي، وغيره) حيث يجتمع الأشخاص ويتشاورون. سنأخذ هذا البعد المزدوج المتعلّق بثنائية «المكان» و«الفضاء» من منظور ميشال دو سارتو. في الواقع، يمثّل «المكان»، وفقاً لكاتبنا، بنية هندسية وجغرافية محضّة عندما يتعلّق الأمر بتوزيع الإحداثيات وعلاقة القرب أو البعد التي توجد مشتركة فيه، في حين أنّ «الفضاء» هو حركة هذه الإحداثيات وتفاعلها الفعّال:

«يوجد نظام المكان (مهما يكن) حيث العناصر موزّعة في علاقات التعايش. ولذلك أستبعد ذلك لأمرين، أن تكون في المكان نفسه. يسود القانون 'الخاص': العناصر التي تُعدّ وحدات متراصّة في بعضها البعض، كلّ متعيّن في مكان 'خاص' ومتميز ومحدّد. المكان إذاً صورة لَحظية من المواضع. تنطوي على إشارة للاستقرار. يوجد فضاء حينما يؤخذ في الحسبان قوى التوجيه ومقدار السرعة ومتغير الوقت. الفضاء هو تقاطع قابل للحركة. هو في بعض الأحيان ضرب حيوي من مجموع حركات تنتشر. الفضاء هو التأثير الذي تنتجه العمليات الموجهة، الظرفية، والزمانية للمبادرة في العمل في وحدة متعددة البرامج المتضاربة أو المتقاربة والمشاركة»⁽¹¹⁾.

الفضاء هو المكان كما اللغة هي الكلام، لاستعارة تشبيه دو سارتو تمّ إعادة النظر باستمرار في جميع أعماله. إذا كان الكلام هو ممارسة فعّالة للغة، في حالة العبارة هو رهان في الفعل له نسقه الشكلي، والفضاء أيضاً هو الممارسة الحقيقية والملموسة للمكان، أصبح ممكناً بالنسبة إلى الحركة أن تدخل تأسيس عمليات تشريعية حول الملكية، والتحيين والعلاقة⁽¹²⁾. «باختصار، الفضاء هو مكان ممارس»، قول دو سارتو في الصميم. وهكذا، المكان الحضري (حيثما كان) يمثّل تحوّل إلى فضاء عمومي، للمشي وللإجماع وللتخاطب، وغير ذلك.

تعيد الممارسات التي تقام في المكان المتغيرات إلى وضعياتها الثابتة حيث يمكنك أن ترى نظاماً متغيراً ومتطوراً. يدلّ المكان، في التعريف، على أنّه «موقع» Site في وظيفة تُموقع الأشياء في علاقة ببعضها البعض. عندما قدّمنا الحركة على أنّها الابتكار، هذا يعني أنّ المكان الذي أصبح ممارسة،

(10) أغورا Agora ساحة عامة في اليونان القديمة (المترجم).

(11) De Certeau, *L'invention du quotidien*, I, pp. 172-173.

(12) على غرار تصريحه في نظام اللغة استناداً إلى العناصر التي تحدّد بنيته ووظيفته، مصرّحاً بالفضاء الحضري الذي يخضع للعمليات نفسها: 1. الملكية: كاستيلاء المتكلم على اللغة والممارسة في وضعها المحلي، السائرون يمتلكون الفضاء الحضري، فهم مهوسون بإدارته. 2. التنفيذ: كما الكلمة هي تحقيق لفظي للغة، السير هو تحقيق مكاني للنظام الحضري. 3. العلاقة: كما أنه يوجد عقد بين المتكلمين داخل نظام اللغة، هناك علاقات طوبوغرافية معدّة في وضعية عقود براغماتية بين السائرين حيث يتم تعريف كل موقف من حيث دور المواقف المتاخمة.

يغدو فضاءً. الفضاء، في التعريف، هو الذي يتيح الفاصل أو المسافة: التباعد بين الأشياء. ربما يتنوع هذا التباعد وفقاً للحركة المقدّمة. ومن هنا، فالفضاء العمومي لديه كل خصائص الثبات والتغيّر وإعادة التشكيل للممارسات التي تمارس وفقاً للتنافس بين العناصر التعبيرية والمؤشّرة.

الفضاء العمومي المغربي في فرنسا: ثقافة شعبية

بناءً على القاعدة الثنائية إستراتيجية/ تكتيكية التي اشتغل عليها ميشال دو سارتو وأعادها في انعكاس اجتماعي سياسي كبير، هل الفضاء العمومي الفرنسي هو «إستراتيجية» بدلاً من الفضاء العمومي المغربي الذي يتعيّن في «التكتيكية»؟ لم يتم التفكير في هذا السؤال من حيث التناقض الاصطلاحي، لكن بالأحرى الاشتراك، والتداخل أيضاً. في تحرّيه الاجتماعي والأثروبولوجي الذي أسفر عن تحرير مجلدين من ابتكار اليومية، ركّز دو سارتو في معظمها على ما يسميه «الثقافة الشعبية» culture La populaire عن طريق إفراغ الكلمة من محتوياتها ووصفها بعار «الأيدولوجية». كان ينبغي أن يكون نوعاً من التصويب النقدي لجعل شرعيتها الإبيستيمولوجية ضمن مفهوم مستمر ومضلل بواسطة «الافتتان» Ensorcellements بنمط السياسة ووسائل الإعلام. ما الذي يجعلنا نعرّف على الثقافة الشعبية؟ ما هي المقوّمات والتحديات؟

يعرّف دو سارتو الثقافة الشعبية بسمتين كبيرين⁽¹³⁾:

– السمة الأولى: الشفوية L'oralité بوصفها إطاراً تفسيرياً لتنفيذ التبادلات الخطابية والرمزية، التجارة⁽¹⁴⁾ في الأفكار، وعقود الكلام والتأويل. هذا هو، باختصار، الاستعمال اليومي للغة العادية مع كل ما يستلزم من عمليات خطابية واستعارية وتصريحية⁽¹⁵⁾.

– السمة الثانية: العمليّاتية L'opérativité بوصفها إطاراً تطبيقياً من شأنها أن تؤدي إلى استعمالات من أيّ نوع. ارتكز ميشال دو سارتو على مسلّمة «النشاط/ الكسل»، بوصفها واحدة من الأفكار الأساسية في فكره، عكس ثنائية «الإنتاج/ الاستهلاك»، في معرفة مصلحة الطرف الآخر الذي يأخذ في الحسبان استعمالات الذكاء بوصفه نشاطاً ضمنياً وإبداعياً⁽¹⁶⁾. فالممارسات ليست انقياداً لرمز اقتصادي يحكمها. على الرغم من أنّها مصنوعة داخل هذا الرمز، فهي تتطلّب نوعاً من التحكم الذاتي

(13) De Certeau, *L'invention du quotidien*, pp. 36-37; M. De Certeau, *La prise de parole et autres écrits politiques* (Paris: Seuil, 1994), pp. 178-179.

(14) ونحن هنا نأخذ كلمة «تجارة» بمعناها الإبيستيمولوجي الذي كان بالفعل في رواج خلال عصر التنوير، مثل اجتماع الناس والمشادة الكلامية، قبل أن يحتلّ اليوم أهمية اقتصادية وتجارية.

(15) يكتب دو سارتو في موضع آخر: «فئة خاصة من لغة تخدم (كما تم تعريفها في القاموس النحوي للغة) استعمالات في واقع الأمر، سلوكيات رب العمل اجتماعياً، نماذج العمل، بروتوكولات، خبايا و'طرق الخير'، ضبط اللغة في مناهة الملابس العارضة، نقص في اقتصاد تبادلات اللغة»، انظر:

De Certeau, *La prise de parole*, pp. 260-261.

(16) De Certeau, *L'invention du quotidien*, chapitre III est entièrement dédié à la question de l'usage: «Faire avec: usages et tactiques.» pp. 50-68.

الذي ينظر متفرداً في طرق استعمال هذا الرمز الاقتصادي، يفترض أو يفرض. وبعبارة أخرى، لا تظهر الممارسات الخاصة في الانقياد للقواعد التي ينظمها الرمز، ولكن في الاستعمال الذي وقع. وينطبق هذا على أي نوع من الإنتاج، مادي أو رمزي.

وبناءً على هاتين الخاصيتين من الثقافة الشعبية، يُعرف الفضاء العمومي المغربي في فرنسا بأنه «شفهية» مشبعة بالخلط اللغوي. هذه هي الحال في «الكلام» حول اللهجة العربية أو البربرية «المفرنسة»، أو على العكس، الفرنسية «المعربة» أو «البربرية». قامت «العمليات» النسبية أيضاً بدور خاص في التراث أو التقاليد التي يدعوها بورديو Bourdieu خلقة أو عادة L'habitus، يتعلّق الأمر بانتشار العادات المغربية في الأماكن العمومية في فرنسا. يُنظر إلى هذه العادات في أنماط الإدراك والحكم المرتبط على وجه التحديد بتاريخ الأفراد وممتلكاتهم الشخصية (اللغات، والمعتقدات، والخرافات، وغيرها). في مقارنته للأقليات غير المرئية التي تشمل التجمعات المغربية، يضع دو سارتو هذا «الغير» من أيّ مكان آخر، أو حتّى المثل هو نتيجة انبثاق من الداخل (البريتونيون، والباسك، وكورسيكا Bretons Basques, Corses)، في اتصال مع «الهوية» بحثاً عن الاستقرار السياسي والاجتماعي. هذا كلّ نسق الفكر «الغربي» الذي يسعى إلى تحديد العلاقة بـ «الغير» في دائرته: «يعكس حضور الأجنبي» عندنا تدريجياً، العلاقة الإثنولوجية أو الاستعمارية Ethnologique ou Colonisateur التي تسمح بإعادة النظر في الافتراضات. وكيفية التعامل معها بوصفها معطى داخل تاريخنا، يُعبّر عن الوضع الاقتصادي، وبوصفه «جسماً غريباً» ضمن تحليل عرقي. البديل غير مقبول (على الرغم من أنه متكرر). فالعلاقة تتطلب إعادة النظر في التقسيم الغربي للمعرفة»⁽¹⁷⁾.

إذا تبدّت المعرفة الغربية بوصفها «إستراتيجية» للتهيئة والتوسّع، يبدو الفضاء العمومي المغربي «تكتيكية»، لأنّه يقاس بأهمية الاستعمال الذي يجعل المغاربة ضمن هذه الإستراتيجية: «يبقى المهاجرون في وضع متبادل. يعود المقيمون في أقاليمنا الإيستيمولوجية لاستيعاب الرموز وفي كثير من الأحيان، تنتشر تجربتهم حتّى في البلد الأصل وفقاً للفجوة التي توجد في التعارض بين الاقتصاد والثقافة، أو العمليات الإنتاجية مع التمثّل الرمزي، تحوّلت تقاليد المهاجرين في الماضي مقارنةً بالحاضر لكن ظلّت لا يتم التفكير فيها وصامتة»⁽¹⁸⁾.

سأعرض هنا العناصر التكتيكية للفضاء المغربي والإزاحات والفجوات الدلالية، نظراً لأهمية العادات المنتشرة في حالات التفاعل، أو ما يدعوه دو سارتو بـ «نظم السلوك الاجتماعي»⁽¹⁹⁾ Régimes de Socialité. يتجلّى هذا النظام الاجتماعي بوصفه «صورة لتنسيق الأفعال» بعد إدخال التعديلات اللازمة بحسب المواقع (الأسرة، والمقهى، والمصنع، وغير ذلك) وفقاً لحالات آتية:

(17) De Certeau, *La prise de parole*, p. 237.

(18) Ibid, p. 238.

(19) في سجل مماثل، كان بولتانسكي وثيفنوت يوصيان بسوسيولوجيا نظم الفعل في:

Thévenot & Boltanski, *Les économies de la grandeur* (Paris: Gallimard, 1991); Albert Ogien & Louis Quéré, *Le vocabulaire de la sociologie de l'action* (Paris: Ellipses, 2005), pp. 105-110.

«لكن يمكنهم أيضاً استيعاب الأنظمة غير المتجانسة للسلوك الاجتماعي في مواقع منفصلة (على سبيل المثال، من جهة، العائلة أو المقهى، ومن ناحية أخرى، المكتب، والمصنع والإدارة)، ويستمر في الترميزات الأخرى والسائدة والممارسة التي لديها تأثير في الكشف في سابقة استثنائية ووظائف خفية [...] أعتقد أنّ تجربة الأعراق تلمس وضوح فوارقنا العرقية (الفكرية، والإدارية) ما يفضي إلى مراجعات مبكرة في تصوراتنا»⁽²⁰⁾.

وهكذا، فإنّ الفضاء العمومي المغربي هو استعمال مختلف الترميزات السائدة. إنّه يدرج عوالم غريبة عن هذه الترميزات، طقوس ذات صلة بالحياة اليومية في المنزل، والمطبخ، للوصول إلى المعلومات، وتحليل الحقائق. في حين يتصرّف في إقليم ترميزاته (ال «إستراتيجية»)، وإعادة استعمال التطبيقات المحدّدة والمحدودة بوجه آخر عند الانتهاء من حالات الفعل (ال «تكتيكية»). أقول إذاً، يوجد استعمالات مختلفة للرمز السائد نفسه. يتناول دو سارتو المسألة قيد الاستعمال والمتصلة هنا بالرمز الإستراتيجي، والتكيّف الذي يحدّد نوعاً من الاستعمال المختلف والمتقاطع مع القيم المشتركة. دون رفض أو تبني، يمكن المرء الحديث عن التكيّف في حالة: «هذه المجتمعات، في التمثّل هي متحوّلة بعمق ومغيّبة عن ساحتنا الوطنية من آثار الاستيعاب التي هي أيضاً في حد ذاتها، بسبب الهجرة والتهاميش، متحوّلة بواسطة تكيّفهم مع الأوضاع الجديدة، هذا يعني آثار التكيّف [...] لا نستطيع حصر استيعاب البلد المضيف (ظاهرة وحشية) الجسم الغريب، فقدرات التكيّف بين أعضاء هذا الجسم هي التي تثبت ذلك، بالنسبة إلى الديناميكية، تترجمها إلى سلسلة من التكتيكات أو الوسائل لإعادة استخدامها لأغراضهم الخاصة من أجل فرض نظام معيّن»⁽²¹⁾.

تتعدّد أشكال هذا التكيّف، على سبيل المثال إقامتها في مبنى هندسة هوسمانية Haussmannienne، لكن في الداخل يتم ترتيبها وفقاً للذوق المحلي للبلد الأصل: النمط الموريسكي Mauresque والمؤثت في خشب صلب. كذلك، يكيّف الفضاء العمومي بأنماط أي مكان آخر، في البلد الأصل، سواء كان ذلك في المقاهي أم الأسواق. يجد المغاربة في هذه الأماكن فضاءً للتبادل الثقافي والخطابات المتعلقة بالنشاطات اليومية، السياسية والاجتماعية الجديدة. على حدّ تعبير ميشال دو سارتو، لخلق أنماط خاصة، مُشربة البراعة والمبادرة الحرة: «يمكننا السعي لإضافة تحليل الخطوات نفسها التي من خلالها تنزع 'الأقليات' Minoritaires، إلى تغيير الأوضاع المفروضة عليها وتحسينها. وليست هي أكثر من الأوضاع التي يوجدون فيها، لكن العمليات التي جعلت تاريخهم، ليس في أكثر الحالات، ولكن في أفعال وأنماط محددة»⁽²²⁾.

هنا، لا يمكن إنكار أنّ سارتو نقل الإشكالية من التمثّلات إلى الممارسات، أو من «علم النفس الاجتماعي» Psychologie Sociale إلى «براغماتية الاستعمالات» Pragmatique Des Usages، لأنّ ما طرح هو أنّ المغاربة يعتقدون أكثر ممّا يفعلون أو يبتكرون أساليب وطرقاً للفعل. ومن المؤكد أنّ

(20) De Certeau, *La prise de parole*, p. 238.

(21) Ibid., p. 248.

(22) Ibid., p. 260.

التمثّلات ليست مستبعدة تماماً حقيقة أنّه من المستحيل فصل الممارسات عن أطرها العقلية. ولكن يتمّ التركيز على الممارسات والطرق المستعملة في الفضاء العمومي السائد. من السهل الإشارة إلى الدلالة والتحدّي المتمثّل بالعالم من طرف العمليات المتخذة، فقط من خلال التوقعات التي تتناول النوايا أو الظواهر النفسية.

الخلاصة: بعض الآفاق المستقبلية

ينطوي عمل ميشال دو سارتو على هدف إمبريقي وبراغماتي يطبع الفعل المغربي الممارس في حالة معطاة. وفي وقت قياسي، لفت دو سارتو الانتباه إلى الدور الذي يمكن أن يقوم به المغرب العربي، ليس فقط في تعريف الهوية الفرنسية (لأنّ أيّ هوية تعرّف دائماً من الآخر الذي يكون خارجياً عنها)، ولكن أيضاً في ترقية نظام سلوك اجتماعي مختلف، هجين وفسيفسائي:

«وُضعتُ عند تمفصل عالمين: ممارس، مفروض وفوضوي، ولكن ممارسة لغتين أو ثقافتين، يدلّ على أنّه لا يزال من الممكن التنقل بين الماضي والحاضر، بين هنا وهناك، يمكننا خلق معادلات للرموز، تنظيم أنساق للترجمة [...] إنّ قبول الوجود الحقيقي للمهاجرين، في الواقع، يفتح فضاءً حرّاً للكلام والتعبير، بحيث يعطيه ثقافة للمعرفة؛ هذا في حالة التوقّف عن السخرية أو عن احتقار علامات الاختلاف، ولكنّه يسعى إلى استعادة أهمية الإنسانية، ردة فعل معيّنة»⁽²³⁾.

كانت دعوة دو سارتو لتأكيدات خاصّة إذاً، تدور حول وجود مجال لإعطاء المغرب العربي الرؤية من خلال الفضاء العمومي حيثما كانت ممارسة الكلام بحرية ومسؤولية. هذا الفضاء ليس بعداً «مسرحياً» scénique فقط يمكن أن يتحقّق من خلال نظام «أشعة» Scopique لنرى أو نرى. لكن يهدف هذا الفضاء ليصبح أيضاً بعداً «إبستيمولوجياً» Epistémique حيث تُعدّ قيم المعرفة جزءاً رئيساً. لأنّ الرهانات على فضاء عمومي مغاربي معزول أو متفاعل مع فضاءات أخرى مهيمنة (الفضاء العمومي الفرنسي) أو مجاورة (الفضاء العمومي الصيني، والبرتغالي، والبولندي، وغيرها) التي تُعرف بثقافة، تجسّد هذه الثقافة في مظاهر متعدّدة ذات سمات ثقافية أو بيداغوجية. هذه هي الحال، على سبيل المثال «العيد في المدينة» l'Aïd dans la Cité في مرسيليا، بمبادرة من جمعيات المغرب العربي، كل عام وأثناء احتفالات العيد، وتنظيم الاحتفالات بالمشاركة من خلال العروض المسرحية، والموسيقى، والرسم، والسينما، والمؤتمرات، وغير ذلك.

إذا كان الفضاء العمومي المغربي يضيف على الكلام أشكالاً متعدّدة للتعبير (الرقص، والغناء، وغيرها)، فإنّها لم تعد موجودة، لكن لا تزال محصورةً عند الأشخاص الذين ينتمون إلى هذا الفضاء، بل تمتدّ إلى أشخاص آخرين يملكون آفاقاً في الاهتمام المعرفي المذكور. إذا كان دو سارتو يذكر بالمغرب العربي خلال سنوات السبعينيات من القرن العشرين، فماذا عن اليوم؟ هل تطوّر هذا الفضاء؟ أم هل تدهور؟ وما هي الاضطرابات والتحديات؟ من المستحيل أن نتناول في بضع صفحات تاريخ هذا الفضاء الخاضع لمتطلبات سكان الجيل الثاني والثالث، مع الاضطرابات

(23) Ibid., p 217.

التي تعيشها فرنسا اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. ولكن لمحة موجزة تبين أنّ الفضاء المغربي ليس كياناً معزولاً، بل يجب أن يرتبط بالرهانات الوطنية والدولية. إذا كانت الضرورات الاقتصادية العامل الأساسي لتنامي الهجرة في سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين (الفترة التي يشير إليها سارتو في كتاباته)، هناك ضرورات أخرى، سياسية وأمنية، طغت على الفترة الممتدة خلال التسعينيات حتى عام 2000. في الواقع، تشبّع سوق العمل في فرنسا بالتطور الاقتصادي والسياسي في العالم (الأزمات الاقتصادية، والأسلمة، وعودة الحساسيات القومية، وغيرها) أدّى إلى تباطؤ هذا التسارع في الهجرة، نقلنا كلُّ هذا من القضية الاقتصادية البحتة (العمالة الأجنبية، ومواقع البناء، وغيرها) إلى القضية السياسية (يضطرّ كل سياسي في فرنسا إلى أن يستعمل سياسة الهجرة في مشاريعه لأغراض انتخابية) والأمنية (منذ فترة الثمانينيات والتسعينيات وقت صعود الجماعات الدينية والإسلام السياسي، باسم «السلفية» Salafisme وارتفاع العنف في ضواحي باريس عام 2005، وغيرها).

لا يهمّ هنا أن نصدر حكماً على سياسات الهجرة المعتمدة (نجاح، أم فشل)، ولكن لتقييم مكانة الفضاء العمومي المغربي في رقعة شطرنج الأحداث والاضطرابات. أولاً وقبل كل شيء، يجب أن نشير إلى أنّ الفضاء العمومي المغربي ليس منسجماً ولا متجانساً. إذا كانت التقاليد التي تمارسها الأسر، قوية في استعمالاتها المختلفة، مع إمكانية وجود تمازج للأجناس، يُعدّ ذلك تصحيحاً ورفضاً صريحاً. هذا واضح في الجيلين الثاني والثالث اللذين تردّدا على المدرسة الفرنسية (خلافاً لأبائهم) واختلطا مع الخلفيات والثقافات الأخرى (الصدّاقة، والزواج، وغير ذلك). تمّ دمج جزء كبير من هذه الأجيال، فهي تلتزم قيم الأجداد، لكن تلتزم قيم الحداثة والعلمنة بعمق، وتتطلّع إلى مستقبل التكنولوجيات الجديدة.

ومن هنا، يقع الفضاء العمومي المغربي في تحوّل، لأنّ القيم حتى الآن علامات مميزة للأشخاص الذين يتعرّفون إلى أنفسهم في هذا الفضاء الذي يخضع لتعديلات من خلال تقديم أنماط مختلفة واستعمالات متباينة. لأنّ الفكرة التي ندافع عنها هنا هي: إذا كان الفضاء العمومي المغربي هو «الاختلاف» في الفضاء العمومي السائد، فهو لا يحمل أقلّ علامات «الاختلافات» في شروطها وعلاقاتها، وتصبح القيم عرضةً للتعديل بتأثير الاتصالات والتبادلات والتفاعلات.

References

المراجع

- De Certeau, Michel. *L'invention du quotidien*. Paris: Gallimard/Folio, 1990.
 _____. *La prise de parole et autres écrits politiques*. Paris: Seuil, 1994.
 Dosse, François. *Michel de Certeau, le marcheur blessé*. Paris: La Découverte, 2002.
 Giard, Luce (éd.). *Michel de Certeau*. Cahiers pour un temps. Paris: Centre Georges Pompidou, 1987.

Habermas, Jürgen. *L'espace public: archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise*. Marc Buhot de Launay (trad.). Paris: Payot, 1978.

_____. «L'espace public: 30 ans après.» *Quaderni*, no. 18 (Automne 1992).

_____. *Droit et démocratie*. Paris: Gallimard, 1997.

Poujol G. & Labourie, R. (éd.). *Les cultures populaires*. Toulouse: Privat, 1979.

Ogien, Albert & Louis Quéré. *Le vocabulaire de la sociologie de l'action*. Paris: Ellipses, 2005.

Quéré, Louis. *Problèmes d'épistémologies en sciences sociales, II-Sociologie, pratique et politique*. Paris: Cems Ehess, CNRS, 1983.

Thévenot & Boltanski. *Les économies de la grandeur*. Paris: Gallimard, 1991.